العربية تحمل في ذاتها نوعا إنسانية.. هي إسهام العرب في حضارة العالم

الأستاذ زكي الارسنوزي

احد المؤرخين الفرنسيين (ارنست دين) يقول في حديثه عن الوحدة الالمانية ان مصير اللغة يتبع المصير السياسي لمتكلميها ويضرب لنا مثلا بتناوب الناس في الاقبال على اللغة الالمانية او اللغة الفرنسية تبعا لمركز كل من المانيا وفرنسا السياسي في العالم ، وللعرب تجاربهم من هذا القبيل ، فلما بلغ المد العربي في غضون القرون الوسطى سهول فرنسا اصبحت ثقافة العرب منهل الشعوب الاوروبية واليك بعضا مما ورد في هذا الشأن على لسان احد ادبائه ذلك العصر :

« يطرب اخواني المسيحيون لاشعار العرب وقصصهم ، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين ، لا لتنفيذها بل للحصول على اسلوب عربي صحيح رشيق ، فاين تجد اليوم علمانيا يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة، واين ذلك الذي يدرس الانجيل وكتب الانبياء والرسل ؟ وا اسفاه .. ان الشباب المسيحيين الذين هم من ابرز الناس مواهب ليسوا على علم من اي ادب ولا اية لغة غير العربية ، فهم يقرأون كتب العربية ويدرسونها بلهفة وشغف ، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة ، وهم يترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب وانك لتراهم من الناحية الاخرى يحتجون في زراية اذا ذكرت الكتب المسيحية بأن تلك المؤلفات غير جديرة بالتفاهم فوا حر قلباه !.. لقد نسي المسيحيون لغتهم ولا يكاد يوجد منهم واحد في الالف قادر على انشاء رسالة الى صديق بلاتينية مستقيمة ولكن اذا استدعى الامر كتابة العربية فكم منهم من يستطيع ان يعبر عن نفسه في تلك اللغة باعظم ما يكون من الرشاقة . بل لقد يقرضون من الشعر ما يفوق في صحة نظمة شعر العرب انفسهم ـ الفارو » .

ولكن لما كرت اوروبا على العرب واحتلت فرنسا لبنان ارتفع صوت مماثل لصوت الفارو في الشكوى غير ان الشكوى في هذه المرة كانت من مدرس اللغة العربية على اهمال الناس لغة اجدادهم من اجل لغة الفاتحين (اللغة الفرنسية)

واذا كان مصير اللغة يتبع مصير متكلميها افلا تختلف اللغات بعضها عن بعض من حيث المقدرة على البيان وتشخيص المعنى ونقله حيا الى الاذهان ؟ في مجال المفاضلة بين لغة واخرى كمجموعة من الادوات. يقول المفكر الالماني هوستون شامبرلن : لو بقي «كانت» على لغة اجداده الانجليز ما كان بلغ ما بلغ من شاو في الفلسفة. وهو يستعمل اللغة الالمانية. واذا كانت شعوب اوروبا قد اتخذت اللغة اللاتينية لغة اساسية في تعليم الناشئة ، فان الاختيار لم يكن بتاثير الذكريات التاريخية (ذكريات روما القديمة) بل لان اللاتينية اصلح من لغات هذه الشعوب لايضاح المفاهيم الانسانية .

واما مقدرة اللسان العربي على البيان فقد استرعت انتباه كل من اولى عنايته دراسة لغة الضاد واليك بعضا من مأثور القول في هذا الشان :

« فاما ما نحن بصدده من ذكر اللغة العربية فلا نزاع في ميزتها على سائر اللغات وفضلها ، اما السعة فالامر فيها واضح ومن تتبع فيها جميع اللغات لم يجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية في كثرة الاسماء للمسمى الواحد ، على ان اللغة الرومية بالضد فان الاسم الواحد يوجد فيها للمسميات المختلفة كثيرا » (سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي) يضاف جمال الصوت الى ثروتها المدهشة في المترادفات (المزهر في علوم اللغة للسيوطي) نعم ان المعاني يمكن ان يعبر عنها باللغات الاجنبية ، ولكن العربية تستطيع ان تنقلها بدقة اكثر وايجاز اتم » . (المزهر) وتمتاز العربية بما ليس له ضريب من اليسر في استعمال المجاز ، وان ما بها من كنايات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيرا فوق لغة بشرية اخرى .. ومثل هذا الحال يجعل الترجمة المرضية من العربية واليها امرا مستحيلا . وهي مع هذه السعة والكثرة اخصر اللغات في ايصال المعاني ، وفي النقل اليها يبين ذلك ان الصورة العربية لاي مثل هي اقصر في جميع الحالات فليس كلام ينقل الى لغة العرب الا ويجيء الثاني اوجز من الاول مع سلامة المعاني وبقائها على حالها .

ولقد ادهشت اللغة العربية بمقدرتها على البيان. يقول ابو داود المطران وهو عارف باللغتين العربية والسريانية: انه اذا نقل الالفاظ الحسنة الى السرياني قبحت وحسنت » واذا نقل الكلام المختار من السرياني الى العربي ازداد طلاوة وحسنا . ويقول الفارابي بصدد البيان في لغة الضاد . هذا اللسان كلام اهل الجنة وهو المنزه من بين الالسنة من كل نقيصة والمعلى من كل خسيسة والمهذب مما يستهجن او يستبشع وفضلا عن ذلك فان فصاحة العرب الفطرية عجيبة » .

ومع ما عليه مركز العرب السياسي اليوم من وهن فان الاستاذ هنري دوباستيه يكتب في جريدة (لوموند) عن رسالة اللغة العربية نحو الثقافة الانسانية :

« ان اللغة العربية التي نبتت في الصحراء ، حيث يشخص النظر في كل ليلة نحو السماء المتلالئة بالنجوم ، ان تلك اللغة بمحتواها الانساني والالهي ، توجه الذهن نحو السمو ، نحو المثل الاعلى ، نحو المطلق . وهكذا فان اللغة العربية تحمل في ذاتها نزعة انسانية كانت نزعة المسيح والتي لا تستطيع لغاتنا البربرية البتة ان تعبر عنها بوجه من الوجوه وهي تشكل اسهام العرب في حضارة العالم . وهذه اللغة هي كنز العرب .

ونحن الاحفاد ، يحق لنا ان نضيف رأينا في مزايا اللسان العربي الى آراء السابقين في هذا المضمار ولاسيما اذا كان هذا الراي يفسر لنا سر تفوق هذا اللسان على غيره من اللغات . فنحن نرى ان اللسان العربي اقوى من اللغات الاخرى في توضيح المفهومات الانسانية بمثابة حسن الرؤية من حواس الجسد . ومزية اللسان العربي هذه ترجع الى الخيال المرن المتضمن في الكلمة والخيال المرن او الصورة هذه تبرز من ثنايا البنية الاشتقاقية للكلمة العربية كظهور صورة الاشراق في معنى كلمة « ذكاء » المتضمنة صورة ذكاء الشمس . ولقد مثلت ذات مرة الكلمة العربية بين شقائقها في الاسرة بمصباح في ثريا يزداد معناها تألقا بتجاوبه مع معاني شقائقه في الاسرة . كما مثلتها مرة اخرى بنغمة في انشودة من حيث اثارتها للانفعالات العميقة في تشخيص المعنى وتحقيقه .

فالى م يرجع امر مزايا اللسان العربي هذه ؟ ترجع هذه المزايا الى نشأة لساننا البدائية والانسجام بين المحسوس والمعقول بين المسميات الحسية وبين المعاني المجردة كما ترجع الى الانسجام بين المضمون وبين العبارة ، اي بين المعنى المتضمن في العبارة نفسها . ظل اللسان العربي امتدادا لعبارة الهيجان الطبيعية وتجسيدا لها . الاخ والاخوة والاخاء هي امتداد لعبارة آخ عبارة التوجع الطبيعية . واذا اضيف الى صوت الهيجان اصوات اخرى كالاصوات المستحدثة في الفم (بت الحاصلة من تقاطع اللسان بالنطع ومنها . بتر والباتر واذا اضيفت الاصوات المقتبسة من الطبيعة الخارجية كصوت خرير الماء ومنها خرب وخر ؟

واذا تجمع ذلك كله فان الحياة تنمو فى تطورها بالاستناد الى الايقاع والى حسن الرؤية المتصفة بالوضوح والدقة .

فالى نشأة كل من الكلمات العربية من صوت طبيعي يرجع الانسجام بين المحسوس والمعقول . كلمتا ذكاء ـ الشمس والذكاء فى النفس يرجعان الى صوت ذلك وتكون الشرارة الى حالة من الدلك صورة حسية للاشراقة (الذكاء) فى النفس . وكذلك الكلمتان شريعة وشارع ترجعان الى صوت شر والشارع تعريف بالمحسوس للشريعة كمجموعة قواعد يسلك عليها الناس فى علاقاتهم بعضهم مع بعض .

وليس البيان فى اللسان العربي بالمجاز فحسب بل هناك البيان الصوتي ايضا . معلوم ان اللسان امتداد صوتي لعبارة الهيجان التى تجسد الشعور وتشرك بتجسيدها اياه الآخرين . واليك مثالا عن هذا المعنى فى لساننا عن الاعراب .

حركة الفتح تعبر عن معنى الركون الحاصل من ركون اللسان عند خروج الصوت وتعد الذهن فى المفعول والفعل الماضي الى المشاركة فى هذا المعنى . وحركة الضمة الحاصلة من تدافع الصوت تعبر عن الفعالية وتعد الذهن للمشاركة فى معنى الفعالية فى الفاعل وفى الفعل المضارع .

ذلك هو اللسان العربي يمثل الحياة فى صعودها نحو الحق والحقيقة .